ثم غزا رسول الله (ص) دومه الجندل [1] ، ثم رجع قبل ان يصل اليها ، ولم يلق كيداً ، فاقام بالمدينة بقية سنته .

غَزوةُ الخَنْدَق

في شوال سنة خمس

ثم كانت غزوة الخندق في شوال سنة خمس .

إنه كان من حديث الخندق ان نفراً من اليهود ، منهم سلام بن أبي الحقيق النضري ، وحيي بن أخطب النضري ، وكنانة بن أبي الحقيق لنضري ، وهوذة بن قيس الوائلي ، وأبو عمار الوائلي ، في نفر من بني النضير ونفر من بني وائل – وهم الذين حزّبوا الأحزاب على رسول الله (ص) – خرجوا حتى قدموا على قريش مكة فدعوهم الى حرب رسول الله (ص) وقالوا إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله . فقالت لهم قريش : يا معشر يهود ، إنكم أهل الكتاب الأول ، والعلم بما اصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد ، أفديننا خير أم دينه ؟ قالوا : بل دينكم خير من دينه ، وأنتم أولى بالحق منه .

فهم الذين أنزل الله تعالى فيهم : « ألم تر الى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ، ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا . أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً » الى قوله « أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله » أي النبوة « فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً . فمنهم من آمن به ومنهم

---

(١) بضم الدال ، وتفتح : من اعمال المدينة ، بينها وبينها خمس عشرة ليلة . وقد استعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم على المدينة في هذه الغزوة سباع بن عرفطة .

ممسوحه ضوئيا بـ CamScanner

ن صدّ عنه وكفى بجهم سعيراً » .

فلما قالوا ذلك لقريش ، سرهم ونشطوا لما دعوا اليه من حرب رسول الله (ص) ، فاجتمعوا لذلك واتعدوا له ، ثم خرج اولئك النفر من يهود حتى جاؤوا غطفان ، فدعوهم الى حرب رسول الله (ص) وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه ، وأن قريشاً قد تابعوهم على ذلك فاجتمعوا معهم فيه

فخرجت قريش وقائدها أبو سفيان بن حرب ، وخرجت غطفان وقائدها عيينة بن حصن في بني فزارة ، والحارث بن عوف بن أبي حارثة المري في بني مرة ، ومسعر بن رخيلة فيمن تابعه من أشجع .

فلما سمع بهم رسول الله (ص) وما أجمعوا له من الأمر ، ضرب الخندق على المدينة ، فعمل فيه رسول الله (ص) ترغيباً للمسلمين في الأجر ، وعمل معه المسلمون فيه ، فدأب فيه ودأبوا ، ورابطاً عن رسول الله (ص) وعن المسلمين في عملهم ذلك رجال من المنافقين ، وجعلوا يورّون[1] بالضعيف من العمل ويتسللون الى أهليهم بغير علم من رسول الله (ص) ولا اذن . وجعل الرجل من المسلمين اذا نابته النائبة من الحاجة التي لا بد له منها ، يذكر ذلك لرسول الله (ص) ويستأذنه في الخروج لحاجته ، فيأذن له ، فاذا قضى حاجته رجع الى ما كان فيه من عمله ، رغبة في الخير واحتساباً له ، فأنزل الله تعالى في أولئك المؤمنين : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه ، إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله ، فاذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم ، واستغفر لهم الله ، إن الله غفور رحيم » . فنزلت هذه الآية فيمن كان من المسلمين من أهل الحسبة والرغبة في الخير ، والطاعة لله ولرسوله (ص) ،

ممسوحه ضوئيا بـ CamScanner

ثم قال تعالى ، يعني المنافقين الذين كانوا يتسللون من العمل ، ويذهبون بغير إذن من النبي (ص) : « لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً ، قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً فليحذر الذين يخالفون عن امره أن تصيبهم فتنة او يصيبهم عذاب أليم » — قال ابن هشام: اللواذ : الاستتار بالشيء عند الهرب — « ألا إن لله ما في السموات وما في الأرض قد يعلم ما أنتم عليه ، من صدق او كذب « ويوم يرجعون اليه فينبئهم بما عملوا والله بكل شيء عليم » .

ولما فرغ رسول الله (ص) من الخندق أقبلت قريش حتى نزلت بمجتمع الأسيال من رومة بين الجرف وزغابة ، في عشرة آلاف من احابيشهم ومن تبعهم من بني كنانة وأهل تهامة . وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد ، حتى نزلوا بذنب نقمى الى جانب أحد ، وخرج رسول الله (ص) والمسلمون ، حتى جعلوا ظهورهم الى سلع في ثلاثة آلاف من المسلمين ، فضرب هنالك عسكره ، والخندق بينه وبين القوم ، وأمر بالذراري والنساء فجعلوا في الآطام (١) .

وخرج عدو الله حيي بن أخطب النضري حتى أتى كعب بن أسد القرظي ، صاحب عقد بني قريظة وعهدهم ، وكان قد وادع رسول الله (ص) على قومه وعاقده على ذلك وعاهده ، فلما سمع كعب بحيي بن أخطب أغلق دونه باب حصنه فاستأذن عليه فأبى ان يفتح له ، فناداه حيي : ويحك يا كعب ! افتح لي ، قال : ويحك يا حيي ، إنك امرؤ مشؤوم ، وإني قد عاهدت محمداً فلست بناقض ما بيني وبينه ، ولم أر منه إلا وفاء وصدقاً . قال : ويحك ! افتح لي اكلمك . قال . ما أنا بفاعل . قال : والله إن أغلقت دوني إلا عن جشيشتك (٢) أن آكل معك منها ! فاحفظ الرجل ففتح

---

(١) الآطام : الحصون ، جمع اطم .
(٢) الجشيشة : طعام من البر يطبخ طبيخاً .

ممسوحه ضوئيا بـ CamScanner

له ، فقال : ويحك يا كعب ! جئتك بعز الدهر وبحر طام[1] جئتك بقريش على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بمجتمع الاسيال من رومة ، وبغطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بذنب نقمى الى جانب احد ، فقد عاهدوني وعاقدوني على ان لا يبرحوا حتى نستأصل محمدا ومن معه . فقال له كعب : جئتني والله بذل الدهر ، ويحهم قد هراق ماءه ، فهو يرعد ويبرق ليس فيه شيء ، ويحك يا حيي ! فدعني وما أنا عليه ، فإني لم أر من محمد لا صدقا ووفاء . فلم يزل حيي بكعب يعتله في الذروة والغارب[2] حتى سمح له على ان أعطاه عهداً من الله وميثاقا لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمدا أن أدخل معك في حصنك حتى يصيبني ما أصابك ، فنقض كعب بن أسد عهده ، وبرىء مما كان بينه وبين رسول الله (ص) .

فلما انتهى الى رسول الله (ص) الخبر والى المسلمين ، بعث رسول الله (ص) سعد بن معاذ بن النعمان ، وهو يومئذ سيد الأوس ، وسعد بن عبادة بن دليم ، وهو يومئذ سيد الخزرج ، ومعهما عبدالله بن رواحة وخوات بن جبير ، فقال : انطلقوا حتى تنظروا ، أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا ؟ فان كان حقا فالحنوا[3] لي لحنا أعرفه ، ولا تفتوا في أعضاد الناس[4] ، وان كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس .

فخرجوا حتى أتوهم ، فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم فيما نالوا من رسول الله (ص) . وقالوا : من رسول الله ؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد ! فشاتمهم سعد بن معاذ وشاتموه ، وكان رجلا فيه حدة . فقال له سعد بن عبادة :

---

(١) طام : عال مرتفع الامواج .
(٢) اي يخادعه ويراوغه . واصل الفتل في البعير ، يفعل به ذلك ليسكن ويأنس .
الذروة : اعلى السنام . والغارب : الكاهل وهو ما بين السنام الى العنق .
(٣) اللحن : التعريض والاشارة في الكلام .
(٤) فت في عضده : اوهنه واضعفه .

ممسوحه ضوئيا بـ CamScanner

دع عنك مشاتمتهم ، فما بيننا وبينهم أربى[1] من المشاتمة . ثم أقبل سعد وسعد ومن معهما الى رسول الله (ص) فسلموا عليه ثم قالوا : عضل والقارة[2] ! أي كغدر عضل والقارة بأصحاب الرجيع : خبيب وأصحابه — فقال رسول الله (ص) : الله أكبر ، أبشروا يا معشر المسلمين !

وعظم عند ذلك البلاء واشتد الخوف : وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم ، حتى ظن المؤمنون كل ظن ، ونجم النفاق من بعض المنافقين ، حتى قال معتب بن قشير : كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب الى الغائط ، وحتى قال أوس بن قيظي : يا رسول الله ، إن بيوتنا عورة من العدو — وذلك عن ملأ من رجال قومه — فأذن لنا أن نخرج فنرجع الى دارنا فانها خارجة من المدينة . فأقام رسول الله (ص) وأقام المشركون بعضا وعشرين ليلة ، قريباً من شهر ، لم تكن بينهم حرب إلا الرميا[3] بالنبل والحصار .

فلما اشتد على الناس البلاء بعث رسول الله (ص) الى عيينة بن حصن ، والى الحارث بن عوف المري ، وهما قائدا غطفان فأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه . فجرى بينه وبينهما الصلح ، حتى كتبوا الكتاب ، ولم تقع الشهادة ولا عزيمة الصلح ، إلا المراوضه في ذلك فلما أراد رسول الله أن يفعل بعث الى بن معاذ وسعد بن عبادة ، فذكر ذلك لهما واستشارهما فيه ، فقالا له : يا رسول الله أمراً تحبه فنصنعه ، أم شيئاً أمرك الله به لا بد لنا من العمل بـه ، أم شيئاً تصنعه لنا ؟ قال : بل شيء أصنعه لكم ، والله ما أصنع ذلك إلا لأني رايت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة ،

---

(١) أربى : ازيد واكثر .

(٢) انظر ما سبق في ص ١٨٠ .

(٣) الرمي بالنبل .

ممسوحه ضوئيا بـ CamScanner

وكالبوكم[1] من كل جانب ، فأردت ان أكسر عنكم من شوكتهم الى أمر ما . فقال له سعد بن معاذ : يا رسول الله ، قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الاوثان ، لا نعبد الله ولا نعرفه ، وهم لا يطمعون ان يأكلوا منها تمرة إلا قرى[2] أو بيعا ، أفحين أكرمنا الله بالاسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا ! والله مالنا بهذا من حاجة ، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم . قال رسول الله (ص) : فأنت وذاك ، فتناول سعد بن معاذ الصحيفة ، فمحا ما فيها من الكتاب ، ثم قال ليَجهدوا علينا .

فأقام رسول الله (ص) والمسلمون ، وعدوهم محاصروهم ، ولم يكن بينهم قتال إلا أن فوارس من قريش منهم عمرو بن عبد ود ، وعكرمة بن أبي جهل وهبيرة بن أبي وهب المخزوميان وضرار بن الخطاب الشاعر ، تلبسوا[3] للقتال ثم خرجوا على خيلهم حتى مروا بمنازل بني كنانة فقالوا : تهيؤوا يا بني كنانة للحرب ، فستعلمون من الفرسان اليوم . ثم أقبلوا تعنق[4] بهم خيلهم حتى وقفوا على الخندق ، فلما رأوه قالوا : والله ان هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها[5] .

ثم تيمموا مكاناً ضيقاً من الخندق فضربوا خيلهم فاقتحمت منه ، فجالت بهم في السبخة بين الخندق وسلع ، وخرج علي بن أبي طالب عليه السلام في نفر معه من المسلمين ، حتى أخذوا عليهم الثغرة التي أقحموا منها خيلهم ، وأقبلت الفرسان تُعنق نحوهم .

---

(١) المكالبة : المضايقة والتشديد .

(٢) القرى : طعام الضيف .

(٣) اي تهيؤوا له .

(٤) تعنق : تسرع .

(٥) قال ابن هشام : يقال ان سلمان الفارسي اشار به على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ممسوحه ضوئيا بـ CamScanner

وكان عمرو بن عبد ود قد قاتل يوم بدر حتى أثبتته الجراحة فلم يشهد يوم أحد . فلما كان يوم الخندق خرج مُعْلِما[1] ليرى مكانه فلما وقف هو وخيله قال : من يبارز ! فبرز له علي بن أبي طالب فقال له يا عمر وإنك كنت قد عاهدت الله ألا يدعوك رجل من قريش الى احدى خلتين إلا أخذتها منه . قال له : أجل ! قال : فاني أدعوك الى الله والى رسوله والى الاسلام . قال لا حاجة لي بذلك . قال فاني أدعوك الى النزال ، فقال له : لم يا ابن أخي ! فوالله ما أحب ان أقتلك . قال له علي : لكني والله أحب ان أقتلك ! فحمي عمرو عند ذلك فاقتحم عن فرسه ، فعقره وضرب وجهه ، ثم أقبل على علي ، فتنازلا وتجاولا ، فقتله علي رضي الله عنه .

وخرجت خيلهم منهزمة حتى اقتحمت من الخندق هاربة .

وألقى عكرمة بن أبي جهل رمحه يومئذ وهو منهزم عن عمرو ، فقال حسان بن ثابت في هذا :

فرّ وألقى لنا رمحه لعلك عكرم لم تفعل
وولّيت تعدو كعدو الظليم ما إن تجور عن المعدل[2]
ولم تلو طهرك مثنا كأنّ قفاك قفا فرعل[3]

وكان شعار[4] أصحاب رسول الله (ص) يوم الخندق وبني قريظة ، « حم لا ينصرون » .

وأقام رسول الله (ص) وأصحابه فيما وصف الله من الخوف والشدة ، لتظاهر عدوهم عليهم ، وإتيانهم من فوقهم ومن أسفل منهم .

---

(١) المعلم : الذي يجعل لنفسه علامة في الحرب يعرف بها .
(٢) الظليم : ذكر النعام ، وهو المثل في الجبن . تجور : تحيد . العدل : الطريق .
(٣) الفرعل : الصغير من الضباع .
(٤) الشعار : العلامة التي كانوا يتعارفون بها في الحرب .

ممسوحه ضوئيا بـ CamScanner

ثم بن نعيم بن مسعود أتى رسول الله (ص) فقال : يا رسول الله ، إني قد أسلمت ، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي فمرني بما شئت . فقال رسول الله (ص) : انما أنت فينا رجلٌ واحد فخذّل عنا[1] ان استطعت فان الحرب خدعة .

فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة ، وكان لهم نديماً في الجاهلية ، فقال : يا بني قريظة ، قد عرفتم ودي إياكم وخاصة ما بيني وبينكم . قالوا : صدقت ، لست عندنا بتهم . فقال لهم : إن قريشا وغطفان ليسوا كأنتم ، البلد بلدكم ، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم . لا تقدرون على ان تحولوا منه الى غيره . وان قريشا وغطفان قد جاؤوا لحرب محمد وأصحابه ، وقد ظاهرتموهم عليه ، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره ، فليسوا كأنتم ، فان رأوا نهزة أصابوها ، وان كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ، ولا طاقة لكم به ان خلا بكم ، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهنا من أشرافهم ، يكونون بأيديكم ، ثقة لكم على ان تقاتلوا معهم محمداً حتى تناجزوه ، فقالوا له : لقد أشرت بالرأي !

ثم خرج حتى أتى قريشا فقال لأبي سفيان بن حرب ومن معه من رجال قريش : قد عرفتم ودي لكم وفراقي محمدا ، وإنه قد بلغني أمر قد رأيت علي حقاً ان أبلغكموه ، نصحاً لكم ، فاكتموا عني فقالوا : نفعل . قال : تعلموا ان معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد ، وقد أرسلوا اليه : إنا قد ندمنا على ما فعلنا ، فهل يرضيك ان نأخذ لك من القبيلتين من قريش وغطفان رجالا من أشرافهم فنعطيكهم فنضرب أعناقهم ، ثم نكون معك على من بقي منهم حتى نستأصلهم ؟ فأرسل اليهم : ان نعم فان بعثت اليكم يهود يلتمسون منكم رهنا من رجالكم فلا تدفعوا اليهم منكم رجلا واحداً .

---

[1] خذّل عنا القوم حتى يفعل بعضهم بعضا .

ثم خرج حتى أتى غطفان فقال : يا معشر غطفان ، بنكم أصلي وعشيرتي . وأحب الناس إلي ، ولا أراكم تتهمونني . قالوا ، صدقت ، ما أنت عندنا بتهم . قال فاكتموا عني ، قالوا ، نفعل . ثم قال لهم مثل ما قال لقريش ، وحذرهم ما حذرهم .

فلما كانت ليلة السبت من شوال سنة خمس ، وكان من صنع الله لرسوله (ص) ان أرسل أبو سفيان بن حرب ورؤوس غطفان الى بني قريظة عكرمة ابن أبي جهل ، في نفر من قريش وغطفان فقالوا لهم : إنا لسنا بدار مقام ، قد هلك الخف والحافر[1] ، فاغدوا للقتال حتى نناجز محمداً ، ونفرغ مما بيننا وبينه . فأرسلوا اليهم ، إن اليوم يوم السبت ، وهو يوم لا نعمل فيه شيئاً ، وقد كان أحدث فيه بعضنا حدثاً فأصابه ما لم يخف عليكم ، ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم محمداً حتى تعطونا رهناً من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا ، حتى نناجز محمداً ، فإنا نخشى إن ضرستكم[2] الحرب واشتد عليكم القتال أن تنشمروا[3] الى بلادكم وتتركونا والرجل في بلدنا ، ولا طاقة لنا بذلك منه .

فلما رجعت اليهم الرسل بما قالت بنو قريظة قالت قريش وغطفان : والله ان الذي حدثكم نعيم بن مسعود لحق فأرسلوا الى بني قريظة : إنا والله لا ندفع اليكم رجلا واحداً من رجالنا ، فان كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا . فقال بنو قريظة ، حين انتهت الرسل اليهم بهذا : إن الذي ذكر لكم نعيم لحق ! ما يريد القوم إلا ان يقاتلوا ، فان رأوا فرصة انتهزوها ، وإن كان غير ذلك انشمروا الى بلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل في بلدكم

---

(١) الخف : الابل . والحافر : الخيل .

(٢) ضرستكم : مالت منكم .

(٣) انشمروا : انقبضوا وانسحبوا الى بلادهم

ممسوحه ضوئيا بـ CamScanner